الراوي

الجزء الرابع من السنة الثانية

١ اذار * مارس * سنة ١٨٩٠ * الموافق ١٠ رجب سنة ١٣٠٧

تمثال الفلكي ليفرّيه

أُحتفل في السابع والعشرين من شهر حزيران (يونيو) من العام المنصرم في مرصد باريس بكشف الغطاء عن تمثال العلاَّمة الفلكي ليفريه الفرنسوي في حفلة احتشد فيها من رجال العلم والادب خلق عظيم · وهذا التمثال الذي اشترك في اقامتهِ عدد عظيم من علماء الارض الذين لبُّوا دعوة البادئين بالاكتتاب يمثل الفلكي واقفاً ومستنداً الى كرّة سموية دلالة على اشتغالهِ بعلم الفلك ولقد رأس الحفلة وزير المعارف وارسلت الجمعيات العلمية مندوبين من قبلها لينوبوا عنها في اداء فروض التجلة والتكريم لذكرى رجل علم ومعرفة فأُلقيت الخطب الرّنانة وكان من جملة من خطب

في القوم مدير المرصد فشكر اللجنة التي سعت في عمل التمثال على انتخابها عرصة المرصد مقامًا لهُ وابان باجلى بيان فضل ليفريه على العلم وما لهُ من الايادي البيضاء على طلاب علم الفلك وعدَّد اكتشافاتهِ الفلكية ومثل توقد ذهنهِ وحدة افكارهِ وصبرهِ على العمل ومثابرتهِ على الاجتهاد حتى ادرك قمة النجاح وتعقبهُ مندوب جمعية فلكية فاورد ترجمة حياة الرجل العلمية واثنى على اعمالهِ ودعا الناس الى اقتفاء آثارهِ في السعي والاجتهاد ثم انتصب نائب "جمعية العلوم" فختم الحفلة بخطاب انيق فصيح تداولتهُ الجرائد الادبية فاحببنا ان ننقلهُ الى القراء وهذا معرَّبهُ . قال :

" فقدنا ليفريّه ولكن ذكرهُ لا يزال بيننا حيًّا مشرقًا واسمهُ معظمًا فكم بيننا من شاهد صدق على اعمالهِ العظيمة ومن طالب علم أروى ظماءه من كوثر معارفهِ وعالم اقتفى اثرهُ وجمعية اجلَّت ذكرهُ . أوليس ان العالم العلمي أجمع قاطبة على مشاركتنا بتكريم ذكره وتخليد اثره باتحادهِ معنا في اقامة تمثال لهُ يحيي رسمهُ ويبقي اسمهُ عنوانًا للفضل وتذكارًا للجهد والعلم . بلى يا سادتي وسيبقى هذا التمثال افصح مثالٍ يدعو الناس الى الكد والاجتهاد واوقع عبرة للذين يظنون وهم يطأُون اعتاب المرصد ان علم الفلك اصبح علمًا سهل المراس قريب المأخذ يُنال بدون تعبٍ وكد . فان علم الفلك علم لا ينال الاَّ بشق الانفس ولقد كان من اصعب العلوم ولا يزال ولن يبرح من امنعها وابعدها منالاً لان العلم كالبلاد المكتشفة حديثًا كلما قطعنا منها ارضًا لاحت لنا ارض سواها . فالعلم اذن يتقدم وعلى طالب العلم ان يسعى وراءهُ ويكد . ومن وجهٍ آخر فجهل زمن ما لهو الامل

المحفوظ للزمن المقبل ولقد عرف ليفرّيه سرَّ ذلك فشمَّر عن ساعد العزيمة وسعى.

وانني اذكر يا سادتي عبارةً فاهَ بها الملك الفونس الملقب بالحكيم والذي لم يكن لا فلكيًا عالمًا ولا ملكًا عظيماً حيث قال "لو ان الله استشارني في ترتيب الكواكب وسيرها لاتحفتهُ بنصائح حسنة". وهي لعمري مؤدى قحة يرددها الكتاب ويعجبون بها. بل هي الأتجديف لم يكن كيبلير ولا نيوتن ولا دالامبير ولا لاغرانج ولا لابلاس ولا ليفرّيه ولا احد سواهم من اساتذة علم الفلك ليفوه بهِ فان القبة الزرقاء موضع درس عظيم وتامل مفيد بل كلها بدائع يقف النظر عندها منشرحًا والفكر حائرًا مستفيدًا

ومما يجمل بي ذكرهُ ان علم الفلك دائم التقدم فلا يمرُّ بنا يوم الاَّ ولنا فيهِ اكتشاف جديد وكلما قلنا "لم يبقَ لمسير الكواكب سرٌّ" تبدو لنا اسرارٌ يجهد العلماء في حل رموزها واكتشاف معانيها. وهذا شأن الناس منذ ثلاثة قرون وهم يحيُّون بصوت الانتصار فتوحات جديدة مردّدين "لم يبقَ لمسير الكواكب سرٌّ". ولما اتمَّ كوبرنيك (العالم الفلكي الذي ابطل مذهب بتوليمه) كتابهُ في الفلك واهدى القراء قواعد علم محققة حق لمعاصريهِ ان يهتفوا بعدل قائلين "لم يبقَ لمسير الكواكب سرٌّ" وجاء كيبلير من بعدهِ فاثبت مذهبهُ ثم تقدمهُ فزاد عليهِ طريقة دوران السيارات وظن انهُ ادرك شأوًا ليس وراءهُ شيءٌ آخر فقال الناس "لم يبقَ لمسير الكواكب سرٌّ" ثم جاء نيوتن فقرأ في مدرسة كمبريدج مذهب كيبلير وتخرَّج فيهِ فلم ينقض منهُ شيئًا ولكنهُ خطا الى الامام خطوة عظيمة بهرت عقول

الطلاب فوضع مذهب الجاذبية واثبت امتدادها الى السيارات فهتف الناس من بعدهِ "لم يبقَ لمسير الكواكب سرٌّ" ولم يكن مع ذلك للعلم حد فجاء علماء فرنسا باشباه هذه الاكتشافات وخلدوا لهم في التاريخ العلمي ذكرًا لا يمحى ومجدًا لا يضمحل . فما سرُّ ذلك يا سادتي . سرهُ بيّنٌ لكل متأملٍ بصير وهو ان افقنا يتسع كلما اتسع علمنا وكلما خطونا الى الامام خطوة فازلنا عقبة نجد من انفسنا رغبة في زيادة الاطلاع وهكذا تقدم نيوتن على كوبرنيك ولابلاس على نيوتن وجاء ليفريه فكان فريدة العقد اجل وكفاه فخرًا انهُ مكتشف نبتون . وليس هذا فقط بل هو واضع القاعدة المحققة التي قرَّ عليها رأي الفلكيين فيما يختص بسير اورانوس السيار الذي اعيى الراصدين امرهُ وكان حتى وقوف ليفريه لهُ بالمرصاد يهزأُ بكل مبدأ وحساب

ولعمري ان العلماء لم يبتلوا بمثلها مشكلة عصت كل مذهب وخانت كل حساب وتقدير فان اورانوس كان يتلاعب بسيرهِ فيتقدم او يتأخر كما يشاء وكما يميل بهِ الهوى فتصدى ليفريه لازالة تلك العقبة ويا لهُ من فخر نالهُ وحسن ذكر خلّد اسمهُ في بطون كتب العلم فان فلكينا الذي نعيد اليوم ذكرهُ برفع تمثالهِ لم يألُ جهدًا امام الصعوبات ولم يكل عزمًا تجاه العقبات بل تصدى لها واقدم عليها اقدام عارف بها وواثقٍ من نفسهِ فاخضعها وحلَّ رموزها وابان معمياتها بعد جهدٍ قضى بهِ غضاضة العمر وعملٍ ابّد ذكرهُ مدى الدهر

نعم ان السعد قد خدم ليفريه والحظ ساعدهُ ولكن هل يؤتى السعد والحظ الاَّ من كان بهما اهلاً . أَوليس لنا من حياة الرجل الذي نؤبنهُ

شاهد على ما نقول · بلى ولكنني لا افيض الان في وصف اعمالهِ وبيان احوالهِ فالمقام حرج وليس ما اتاهُ مما يسهل بيانهُ ويقصر وصفه ونعته · وما عدا ذلك فان لهُ على صفحات القلوب اسماً نقشهُ العلم فلا يمحى رسمهُ وفي النفوس ذكرًا اقامهُ العمل فلا يزول وسمهُ

فما مات من ولَّى وابقى بذكرهِ لهُ اثرًا يمضي الزمان ولا يمضي

هذا هو الخطاب البليغ الذي فاهَ بهِ نائب الجمعية العلمية نوردهُ ملخصًا بتصرفٍ ليكون عبرة لرجالنا ومثالاً لقومنا فيهبوا الى تخليد ذكر العلماء الذين خدموا الوطن العزيز ونفعونا بعلمهم والله لا يهمل أجر المفيدين



في كل وادٍ اثر من ثعلبة

﴿ الحشيش ﴾

— ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا

كنقص القادرين على التمام

ما رأيت في مصر العزيزة عيبًا الاّ وتمثلت بهذا البيت فان مصر من اقدر بلاد الدنيا على التمام لما خصتها بهِ الطبيعة من حسن الموقع وخصب التربة وغزارة المال وحكمة الرجال · ولو شاءت مصر لكانت في مقدمة الدول تمدنًا وعلمًا وقوةً ولكنها بليت لسوء الطالع بالاهمال فانثلَّ عرش مجدها واندك حصن قوتها وبثت بالمفاسد فدارت عليها الدائرة وكثر فيها النقص والعيب

ومن العيوب التي يندى لها جبين مصر خجلاً استعمال الحشيش الذي يُدني مدخنه من الحيوان الاعجم فتنحط قوى ذاكرتهِ ويتولاه الخمول والبله وتقوى عليهِ اعراض السكر وتصورات الجنون والعياذ بالله · هذا عدا عما يفعلهُ الحشيش بالجسد فان مضارهُ تكاد لا تحصى ولست في هذا المقام لابين لك اضرار هذه الآفة فان ذلك اشهر من نارٍ على علمٍ وانما اريد ان اظهر انذهالي من عدم توصل الحكومة السنية الى طريقة تمنع بها استعمال هذا الصنف جهاراً بل هذه البلية التي تجرُّ الى خراب العقل والجسم ودمار الذاكرة والفهم وهي اضرار علمت الحكومة جسامتها فاحبت ان تتلافاها فامرت جماركها بالحجز على الحشيش وسيّرت المراكب لترصد الشطوط ووضعت الحد على من يتقدم على المتاجرة بهذا الصنف المضرّ ولكنها مع كل ذلك لم تأتِ البيوت من ابوابها · وانني لاعجب كيف ان حكامنا يهتمون اهتماماً غريباً بمنع دخول الحشيش الى مصر ولكنهم يغضون طرفاً فلا ينظرون الى ابواب المحششة المشرعة ولا يسمعون قهقهة الحشاشين وهم ينكتون جلوساً وسحابات الدخان تتصاعد من الجوزة فتظلل المكان والسكان ··· ومن الغريب ان رجال الخفر والشحنة يمرون على الابواب فيسلمون على من هنالك من الاصحاب ثم يعبرون في طريقهم وهم يطلبون للقوم الاجر والثواب · فلِمَ هذا الاهمال وبمَ يصف العاقل هذه الاعمال · انما نحن في عصر المدنية والنور عصر تنبهت فيهِ افكار الرجال الى عظائم الامور فالى مَ يهمل وجوه القوم عامتهم في حمأة الجهل والخشونة والضلال ····

هذه تذكرة على عجل اسوقها الى ذوي الحل والعقد وعسى تنفع الذكرى

ولست اريد بها سوى الاشارة الى ان قفل اماكن الحشيش احسن واسطة تضمن لنا النجاح في التخلص من هذه الآفة فليفعل زعماء القوم بما يرون وما على الناصح من جناح

﴿ المضحكات المبكيات ﴾

طفت البحار وجبت القفار فلم ترَ عيني أعجب من مصر فلقد صدق من قال انها بلاد الغرائب والمعجزات · وما أُريد بهذا القول سوءًا بمصر فمصر من بعد سوريا بلاد اتخذتها لي وطنًا فاحبني واحببتهُ وهصرت فيهِ غصون الانس وقضيت غضاضة الشباب ووقفت لهُ الآمال وعقدت عليهِ الرجاء على انني رأيت منذ اقامتي في هذه البلاد عجائب لم ترها عيني وسمعت بمعجزات لم تسمع قط بها اذني فقلت في نفسي صدق القائلون · · · رأيت القويَّ صاحب الحق وكثير الكلام صاحب المقام فعلمت ان اكثرهم ادعاء ومخرقة يدعى باكثرهم علمًا ومعرفة · ولي على ما اقول الف شاهد وبرهان فانظر الى اعلى المناصب واسمى المراتب ترَها منذ الاحتلال الانكليزي مقعدًا لاولاد بريطانيا ثم وجه لحظك الى الجرائد والمجلات ترَ ان اكثرها مخرقة ونفخة اروجها بضاعة واكثرها كسبًا وان كانت اقلها صدقًا وانقصها اخلاصًا وولاء

ومن معجزات مصر التي تضحك فتبكي كتاب قريب العهد لم ينسج على منوالهِ البديع كتاب فكأنهُ آية الله انزلهُ على قلب واضعهِ ليكون غريبة العصر ومعجزة هذه الايام

اما الكتاب — دليل مصر — فليس هو من الاعجاز بشيء ولكنهُ في

نوع وضعهِ بمكان قصي من الغرابة وكيف لا يستغرب مثل هذا الكتاب وهو قد جاء بآيات ما انزل الله بها من سلطان · ولقد سمعت بعضهم يقول : حسن والله فلو كان كل ما يقال يصدّق لكان واصف نفسه في ذلك الكتاب — وما نسميه فلقد شحن الكتاب باسمهِ وباسماء تآليفهِ وصورتهِ — اعلم الناس واكرمهم خلقاً واحسنهم ذاكرةً واكثرهم ذكاءً وانفعهم عملاً وانهُ هو الذي قيل فيهِ :

ودعْ كل صوتٍ غير صوتي فانني انا الطائر المحكيّ والآخر الصدى

ثم قال : واننا لا نعجب كيف انهُ لم يذكر في عرض ما ذكرهُ لنفسه من الاوصاف الباهرة والمزايا الفاخرة أنهُ يسبّ الدين في كل لحظة وحين · · وما اريد بهذا الكتاب سوءًا ولكني اقصد تذكرة فلو وضعهُ صاحبهُ على نسق الدليل الافرنجي لكان اتمّ واكمل فان وضعهُ على الصورة التي هو عليها لما يجلب عليهِ الانتقاد واللوم · ويظهر جلياً لمن يتصفحهُ ان الغرض سرى فيهِ كل مسرى وان الوصف على قدر الدفع وهو عار علينا نحن الشرقيين فالامَ نحيد عن سبيل الكمال ونغل حرية افكارنا بالقيود والاغلال

والكتاب برمتهِ مرسحٌ للمضحكات المبكيات ولكنها غير ذات اهمية عظمى بالنسبة الى ما نراهُ منها مما يطلق لساننا بقول الشاعر

ضحكت من البين مستنكرًا وشر البلية ما يضحكُ

فالمضحكات المبكيات كثيرة في مصر وهي الان اكثر منها من قبل أفليس من المضحكات المبكيات ما يقولهُ الانكليز عن وزارة حقانيتنا من

انها في نا أخر خلافًا لسواها من النظارات . ولماذا يدّعي عليها الاجانب بهذا النقص.يدعون به لان ليس للمراقب الانكليزي عين في ذلك النادي. أَوليس من المضحكات المبكيات تقريرهم المستر سكوت مستشارًا للنظارة المذكورة . وأليس من المضحكات المبكيات ما شاع وذاع وملأ الاقطار والاصقاع من امر وكلاء المديريات ... أوليس من المضحكات المبكيات ما طرق الاسماع واذهل الافكار مما يختص بوكيل مدير المتحف وان من الواجب ان يكون انكليزيًا لا وطنيًا مصريًا . واليس من المضحكات المبكيات ما نراه من الانصباب على مشروع المستر لاثام في مجاري العاصمة مع ما هو مشهور عنهُ من عدم الوفاء بالحاجة على كثرة الاكلاف والنفقات . وما نظرنا اليهِ ذاهلين ووقفنا لديه حائرين من امر المدرسة الزراعية الموهومة والثمانمائة دينار الذهب المنقودة التي خرجت من صندوق الحكومة مكافأة للانكليزي على تنزههِ في النيل وتفرجه على الآثار . وكلينيك القصر العيني واساتذة من الانكليز لا تطيق ان تراهم فيهِ عيني . اوليس من المضحكات المبكيات ما نشاهدهُ في كل يوم من عزل عشرات من المستخدمين واستبدالهم باجنبي (انكليزي) لا يماثلهم الاَّ بقبض الراتب فقط .

وماذا بمصر من المضحكات ولكنهُ ضحك كالبكا

ولو شئت ان اعدد لك من امثال هذه لقضيت وقتي معك ولم آتِ على اخر ما عندي منها فانا اقتصر الان على ما ذكرت تاركًا لله ولولاة الامور اصلاح حالنا وان الذين ولّيناهم امرنا واخترناهم رعاة لنا مسئولون في مصلحتنا ونعيم وطننا

﴿ المرافع ﴾

أيام تعوّد الناس فيها نشر راية الافراح وادارة الكؤوس والاقداح وجزر الجزور واقامة الولائم واغتنام فرص اللهو والحبور برغم الزاهد واللائم. وهي سنّة قديمة يكاد لا يعرف منشأها اتخذها الخلف عن السلف الذي كان يعمل بها وداعًا للملذات واستقبالاً لايام الصيام والصلوات ... ولقد مرّت بنا بعد منتصف الشهر الغابر فارتنا الناس حيارى كانهم سكارى وما هم بسكارى. وكانت شاهدة على عسر الاحوال فنسأل الله استبدالها بحسن المآل. وسأروي لك في ما يجيء شيئًا عن تاريخ هذه العادة ليكون ذلك من قبيل الفكاهة والتاريخ

﴿ التاريخ ﴾

راى بعض ذويّ الاخصاء واصدقائي الخلصاء ان استيعاب تاريخ الف سنة يكون عامًا شاملاً للحوادث التي طرأت على اربعة اقطار الدنيا لا يتم لنشرة شهرية كراويك وتقدموا اليّ في ذلك فصوّبت رأيهم ورأيت ان اغير الخطة التي اتبعتها واجيء القراء بنبذة تاريخية تكون وقائعها غير مرتبطة بما تقدمها او بما يليها وذلك على النسق الذي جريت عليهِ في ايراد بعض وقائع العرب في العدد الثاني وعساني اصيب الفائدة التي اتوخاها لبني الوطن العزيز الذي قد نذرت لهُ دمي وما تملك يدي فاسمع :

أنهُ لما دخل الدين الاسلامي بلاد فارس اي نحو السنة الستمائة للمسيح تبدد شمل بقايا الفرس الاقدمين فاعتصموا بالجبال واقاموا في مقاطعات بعيدة يحرثون الارض ويعيشون مما ترزقهم وانني ملمّ ههنا بشيء من عبادة

الفرس الاولين فاقول : كان الفرس كالهنود لا يدينون قبل دخول الاسلام بدين حق فانهم كانوا يعبدون الهواء والماء والنار والارض والرياح ثم اضافوا الى هذه العبادة عبادة الكواكب لانهم رأوا ان الشمس والقمر يعيّنان لهم الاوقات فقالوا ان هما الاّ من الالهة فعبدوهما وما ابطأوا ان قدموا الضحايا والقرابين الى الانهر فانهم كانوا في جهلهم يهابون كلّ اسرار الطبيعة ويخضعون لها · ولم يكن لهم هياكل ومعابد يقيمون فيها الشعائر الدينية فكان كل فردٍ يقيم الصلاة ويقدم الضحية حيث شاء · وكانوا يعزون الى نبيهم العظيم هوب وضع المجوسية ويعتقدون في المجوس الكهانة والحكمة والنبوة ويقسمونهم الى مراتب ثلث وهي التلامذة والاساتذة والاساتذة الكاملون وكانوا يعتقدون ان لكل شيء الهًا فكان اورميز إله النور ومقامهُ في ايران وأهريمان اله الظلام ومقامهُ في طهران بين الشياطين والظلمات والشرور. وكانوا يقولون ان زيرفان أكيرين هو الابدية والابدية هي الكلمة والكلمة هي نفس اورميز المولود من زيرفان أكيرين · واذا مثلوا الابدي متلألئًا بالنور متلمعًا بالبهاء وهو رمز ميلادهِ دعوهُ ميتهراس اي الشمس وقالوا انهُ الالهُ المنظور· ويوءخذ من التواريخ القديمة ان موءسس هذه الاعتقادات انما هو زور وهاستر الاول ولعلهُ ابرهيم الذي يلتحم اسمهُ بكل منشأ ديانة في الشرق · فلما قويت شوكة الاسلام سعى الخلفاء في ملاشاة تلك الخرافات وهدموا الاماكن التي كان يجهد فيها الفرس بتقليد النار السموية فهاجروا الى الجبال القريبة وشتت الله شملهم · ولا تزال بقيتهم يحترمون النار والشمس ويجلونهما كاشرف صور الالوهية وهم يحافظون على اللغة القديمة

وهي عندهم اللغة المقدسة كالسنسكريت عند الهنود · وتراهم عائشين الى الان بانتظار اليوم الذي تردّ فيهِ الفرس اليهم ·

هذه حكاية الفرس الاقدمين وبقيتهم اما اهل فارس اليوم فليسوا من هذا النسل وانما هم اخلاطٌ من العرب والترك والتتر

في السنة الثالثة والسبعين بعد الستمائة افتتح سادس خلفاء الصلاحيين مدينة رودس فغنم ذخائرها وباع صنمها المشهور بكونه احدى عجائب الدنيا السبع الى رجلٍ يهودي فحمل منهُ ٩٠٠ جمل نحاسًا حمل كل منها ثمانية قناطير · وكان طول الصنم ١٢٨ قدمًا وهو بصورة الاله ابولون وكان قائمًا على المرفا حيث تمرُّ من بين فخذيه اكبر المراكب واعظمها . وكان في داخلهِ سلّم تصل الى اعلاهُ يصعد منها لانارة المنارة التي كان يحملها في يمينهِ · ويروى انهُ نُصب قبل هذا العهد بتسعمائة واحدى واربعين سنة ثم صدمتهُ بعد نصبهِ بخمس وستين سنة زلزلة شديدة فقلبتهُ وبقي مطروحًا حتى باعهُ اليهودي من الخليفة وحمل نحاسهُ الى الاسكندرية

خطرات افكار

الويل لمن لا يعرف من نفسهِ موضع الضعف فيقوّيه

العقاب بالموت مقبول ما دام الشعب في حالة البداوة والهمجية فمتى ارتقى الى درجة الحضارة عدّهُ ظلمًا واستبدادًا فلا يجدي حينئذٍ الا في اثارة صدور الخاصة ضد الحكام وايغار خواطر العوام

لا تصلح حال امة يحكمها رجل لا يعرف لغتها ولا يدين بدينها

متى بدا نور العلم واشربت القلوب حب الرفعة ظهرت اشعة الحرّية

فتطايرت اليها افئدة الرجال وطمحت الابصار نحو سهول الاستقلال

ان بلادًا أعلام العدل فيها منكسة ولواء المحاباة والرشوة منشور لخليقة با الذل والهوان وان يعامل اهلها معاملة الاعجم من الحيوان

تبّت يدا المستبد الذي يمنع الشعب ورد ماء الحرّية ويساعد القوي على هضم حقوق الضعيف لمآرب ذاتية واغراض خصوصية

مثل من باع بلادهُ وخان وطنهُ مثل الذي يسرق من مال ابيهِ واخيهِ ويطعم اللصوص فلا ابوهُ يسامحهُ ولا اللص يكافئهُ

الامة الشجاعة والقلوب الكريمة تصبر على القلة والجوع اكثر من صبرها على الهوان والخضوع

من دخل العدوّ بلادهُ عنوةً واقتدارًا ولم يدفعهُ عنها الى آخر نسمة من حياتهِ مجاهدًا في استخلاصها من قبضة يدهِ كان لئيمًا تجوز عليهِ اللعنة

﴿ اشعار ولطائف ﴾

من رقائق المنظوم قول ولادة بنت المستكفي تعاتب ابن زيدون

الحاظكم تجرحنا في الحشا ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذي اوجب جرح الصدود

ويعجبني قول عائشة الباعونية

كأنما الخال تحت القرط في عنق ... بدا لنا من محيا جلّ من خلقا
نجم بدا في عمود الصبح مستترًا ... تحت الثريا بقرب الشمس فاحترقا

وانشد بعضهم

ومن عجب اني أحنُّ اليهمُ ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقال الشافعي :

مرض الحبيب فعدتهُ فمرضت من لهفي عليه
شفي الحبيب فعادني فشفيت من نظري اليه

وقال بعضهم ويُروى انهُ عبد الصمد المغربي

يا بديع الدلّ والغنجِ لك سلطانٌ على المهجِ
ان بيتاً انت ساكنهُ غير محتاج الى السُرُجِ
وجهك المعشوق حجتنا يوم تأتي الناس بالحججِ

وأنشد آخر

ان هواك الذي بقلبي صيرّني سامعاً مطيعاً
أخذت قلبي وغمض عيني سلبتني العقل والهجوعا
فدع فؤادي وخذ رقادي فقال لا بل هما جميعا
فراح مني بجـــاذبيه وبتُّ تحت الهوى صريعا

حكي ان رجلاً تجنى عليهِ الحبيب فلم يجد الى الصبر سبيلا وشكى اليهِ وجدهُ المذيب فلم يلقَ لديه قبولا فزاد بهِ الوجد وغلبتهُ الاشواق والتمس وسيلة يطفي بها اللوعة والاحتراق فلم يجد ملجاً غير الكأس فانصب اليها حتى لعبت الخمرة بالرأس فاخذ قبساً من نارٍ فاحرق بهِ باب الحبيب الظالم ورآهُ بعض الجيران فرفعوهُ الى القاضي لينال الجزاء اللازم فلما مثل بين يديهِ تنهد ثم رفع راسهُ وانشد :

لما تمادى على بعادي وأضرم النار في فؤادي

ولم اجد من هواهُ بدّاً ولا معينًا على السهادِ
حملت نفسي على وقوفي ببابهِ وقفة الجوادِ
فطار من بعض نار قلبي اكبر في الوصف من زنادِ
فاحرق الباب دون علمي ولم يكن ذاك من مرادي

وكان القاضي لطيفًا فاستظرفه وحمل عنهُ ما افسدهُ

وحكى الحجازي ان رجلاً مات حبيبهُ فجلس يبكيه فطلع البدر فنظر اليهِ ولم يقدر ان يملأ عينيه منهُ فانشد :

شقيقك غيّب في لحدهِ وتطلع يا بدر من بعده
فهلا خسفت وكان الخسو ف لباس الحداد على فقده

قيل فصُودف ان البدر كان على وشك الخسوف فخسف حينئذٍ

نظرت فتاة صغيرة الى شعر امها فوجدت ان قد اختلط البياض بالسواد فقالت لها : لماذا يخالط شعرك الاسود شعر ابيض يا امي . قالت : لانك فتاة صغيرة العقل . ففكرت الابنة ساعة ثم قالت : فلقد كنت اذن حمقاء جدًا يا امي . قالت : ولماذا قالت لاني ارى شعر جدتي كقطعة من الثلج .

وقال الاصمعي : رأيت بدوية من اجمل الناس وجهًا ولها زوج لم يُرَ اقبح منهُ فقلت لها يا هذه أترضين ان تكوني لهذا فقالت : لعلهُ احسن فيما بينهُ وبين الله فجعلني ثوابهُ وانا أسأت فيما بيني وبين ربي فجعلهُ عقوبتي

وحكي ان العلوي حاصر مدينة بالشام فاشرف على تملكها وكانت فيها امرأة مشهورة بالجمال فقالت لاهل المدينة انا اكفيكموه ثم خرجت فحضرت اليه وقالت لهُ ألست القائل :

نحن قوم تذيبنا الحدق النجـ ـــ ـلُ على اننا نذيب الحديدا
طوع ايدي الظباء تقادنا العيـ ـــ ـن ونقتاد في الطعان الاسودا
وترانا لدى الكريهة احرا ـــ راً وفي السلم للغواني عبيدا

قال نعم فاسفرت عن وجهٍ كالبدر وقالت احسناء انا ام قبيحة قال بل حسناء واخذت بمجامع قلبهِ فقالت ان كنت عبدًا للحسان فاسمع واطع وارتحل فنادى بالرحيل

ويحكى عن مصعب بن الزبير انهُ كان جالساً بفناء داره اذ جاءت امرأة فوقفت تنظر اليهِ فقال لها ما وقوفك يرحمك الله فقالت طفئ مصباحنا فجئنا نقتبس من وجهك نورًا · وقيل لاعرابية ما بال شفتك مشققة فقالت ان التين اذا حلا تشقق والورد يتشقق اذا مسهُ الندى

﴿ عاقبة البغي ﴾

وهذا ختام كلامي معك اليوم فارعني سمعك. من امثال العرب الحكمية قولهم

اذا انت اكرمت الكريم ملكتهُ   وان انت اكرمت اللئيم تمرّدا

وهذه يا ابن الحرة حقيقة لا يختلف فيها اثنان ولقد صار مثلها اشهر من ان يذكر حتى انهُ جرى على السنة العامة · واني لا اورد لك هذا المثل الاَّ تعريضاً ببعض الرجال الذي نعتبرهم فيخال لهم انهم من غير البشر وان لهم على الانسان مزية الانسان على الحيوان · ومن امثال هولاء رجل في بعض دوائر الحكومة (من ناحية المحافظة) بهذا الثغر ظن ان لهُ على الصحف ضريبة فيقبلها كلها واذا جاءهُ الجابي خرج عليهِ بالشتم

والاهانة · وهو بغي ما كنت لا توقعهُ ممن يحسب نفسهُ من الرجال فان عاقبة البغي وخيمة · وهذه كلمة وجيزة ازفها الان تذكرة لهذا الرجل فعساه يرعوي عن غيهِ فيكفي نفسه مؤونة "اليأس" فلا تصدق فيهِ حروف اسمهِ · · · ·

اما الان وقد افرغت بين يديك جعبتي فاختر لقرائك منها ما يحلو وادعُ الله لهم ولنا فالله حسبنا ونعم الوكيل



اخبار

﴿ عيد الامير ﴾

على وجهِ الخديوي كل يومٍ سلام الله معتنقًا رضاهُ

نحن اليوم في موقف هناء وحبور ومقام فرحة وسرور فلقد هلت بشائر العيد السعيد واشرقت شمس اليوم المجيد يوم تلألأت فيهِ انوار التوفيق العظيم فملأت القطر رجاء ونورًا وهلّ هلال الوجه الكريم فأفعم القلوب هناء وحبورًا · فنحن نتقدم الى سدّة الملك السنية بعبارة التهنئة بحلول عيد مولد الذات الخديوية التوفيقية سائلين الله ان يديم في يمين المولى حسام النصر ويبقيه حرزًا للقطر العزيز يلبسه المجد والفخر ان شاء الله

﴿ رجاء والتماس ﴾

علمنا ان بعض الشبان الادباء قد ألفوا في مصر القاهرة جمعية من شأنها التمثيل العربي وانهم خصصوا للفقراء الاربعين في المأية من ارباحها

وهي مأثرة نضيفها الى كرم العرب الذين يضرب المثل بجودهم وسخائهم · ونحن نرجو ان يكون عملهم معقوداً بنواصي النجاح والفلاح ونلتمس من الحكومة ان تمد يدها البيضاء الى الاخذ بناصر هؤلاء الشبان وتظهر الاريحية الوطنية ففي مثل هذه الحالة يحمد تقديم "الاوبرا مجاناً وبذل المساعدة المالية" ولا يخال لنا ان الحكومة السنية تضنُّ بذلك على جوقة من الوطنيين لا سيما وهم عاملون على خدمة الفن والوطن

﴿وزدناهم جحشاً لعلهم يركبون﴾

الى عزيز سليم صعب في بيروت

قال الشاعر

لو كل كلب عوى القمتهُ حجرًا   لاصبح الصخر مثقالاً بدينارِ

وقال آخر وهو آخر حديثنا مع الجاهل اللئيم :

ايها النابح الذي يتصدى   بقبيح لكي ينال جوابي
لا تؤمل اني اقول لك اخسأ   لست اسخو بها لكل الكلابِ

﴿استلفات نظر﴾

نستلفت انظار مشتركينا الكرام الى ان بدل الاشتراك يدفع سلفاً · وكان هذا شرطنا من يوم اصدرنا العدد الاول فمن كان منهم غير راغب في القيام بتعهده فليرجع الينا الاجزاء والسلام ·

مراسلات

ابواب المجلة مفتوحة لرسائل كتابنا الادباء وصفحاتها معدة لنشر نفثات اقلام شباننا الاذكياء ولكننا ننشر فيها ما يرد الينا كما يأتينا تاركين مسئوليته من كل وجهٍ على صاحبه غير متحملين تبعة شيء من ذلك

كشف الخبايا

بقلم صديقنا الفاضل ابرهيم بن ايوب

(تابع)

بين مخارجها وفتراتها والصياد مصغٍ الى ان سمعته يقول حسن ما عملت وهذا جزاء البغاة الكافرين وعسام لا يجدون من ينقذهم من ورطتهم فيهلكوا جوعاً وبصرعهم البغي فيسقطوا في الحفرة التي احتفروها للابرياء. وبعد ذلك انطلق الخالد وكان النسر منحطّاً على القماري بمخلبه ومنسره فلما فرغ من غذائه قال له الصياد اي ابا يحيى عليك باتباع اثر القوم وان رأيتهم نجوا ورأيت اعداءهم كفوا عنهم ترسل من يخبرني بذلك واذا رأيت الاشرار يطاردونهم فاعمل مع ابي الحصين على احباط موامرتهم وكن على حذرٍ مع ابي الحصين ان يرموكما بالرصاص فانطلق الطير الى حيث لا اعلم. فاجاب صاحبي وقال اني لا ارى في الامر ما يستوجب الارتياب وانا على يقينٍ من قولي ثم عاد الى تتمة حديثهِ فقال وارجو ان تكون ثقتك بي اكيدة وان لا يشوب اعتمادك على اخلاصي ارتياب قلت اذن تعلم السبب الذي اوجب لها ذلك الذهول حتى فرطت منها تلك البادرة ثم اخذت في الجد وقلت له بتانٍ يدل على الانفعال واظن ان عودتها المستترة تحت القيام بواجبات الوداع لها معانٍ اخرى وعند اتمام هذه الجملة مددت عنقي وحددت بنظري اليهِ لاستماع اجابته وكنت الاحظ ما يبدو على وجههِ من فعل التاثير علي اتبين من ذلك شيئاً اصرف اليهِ بحثي اما هو فكان كأنهُ صنم من حديد على ان نظراته التي كانت مملوءة لطفاً ورقةً

ولكي لا اجعل لهُ وقتاً يرتكن عليهِ حكمهُ في كتمان الامر وجهت اليهِ كلاماً من باب التعريض وقلت ومن العار والدناءة الفاضحة ان يخفي صاحب على صاحبه امراً يوجب كتمان اهانة المكتوم عليهِ حتى ينكره اخيراً ذلك الصاحب ويكون هو من اكبر المساعدين لاضراره وعلى الخصوص اذا كانت المسألة متعلقة بعرضهِ وارى ان من تكون مبادئهُ على هذه الصورة لاشر من الشيطان ولا تخرج اعماله عن الحطة والدناءة ولا يسوءني اساءتك هذا الكلام بعد ان رأيت لك ضلعاً في الدخيلة وانت تكتمها عني . اجابني لا يخلو ايها الصديق حدسك من بعض اليقين ولكن اقول باني لم ازل ملازماً على ولائك مخلصاً في محبتك وانا بمعزل عما ترميني بهِ اقول هذا واترك لك الخيار في القبول وعدمه ولا ازيدك عليهِ حرفاً قلت فانت خائن . . . فلم يجب فاخذتني حدة عظيمة واختلط على صوابي وعمدت على الانتقام ولكن آه . . . ممن . . ولماذا فلا اعلم وتنكرت في عيني طرق الاعتماد ولا يمكن ان يرتبك انسان مثل ارتباكي ومع اني كنت حكيماً في تصرفي رأيت نفسي احمق لا يعلم اين يذهب ولا يدري ماذا يقول وما لبثت ان تبينت غلطي وعظم الاهانة التي وجهتها لصاحبي وعزمت على ان اطلب منهُ الصفح على اني امسكت عن ذلك لعلمي ان لهُ دخلاً في امر مجهول يتعلق بي وهو يكتمهُ عني

وكانت الساعة قد دقت واحدة بعد نصف الليل فقام صاحبي بقصد الانصراف على انهُ دنا مني ومد يدهُ لمصافحتي فامسكت يدي ولم امكنهُ من المصافحة وقلت لهُ ان المصافحة عنوان المودة ولا اراك ودوداً امد يدي لمصافحتهِ فتبسم تبسماً خفيفاً مملوءاً كآبة وقال وهو يغض من طرفهِ احتقاراً لا اتمنى ان يدنو ذلك اليوم الذي تلتمس بهِ ان تضع هذه اليد على فيك لتقبلها قلت ما اسهل ان يتنصل المذنب من جنايته بمثل هذه الترهات اجاب بقدر ما هو مباح لك ان تفترض ما شئت وخرج صامتاً

ولما صرت وحدي اخذت في ان اتسع في تصوراتي واهيئ لنفسي مستقبلاً جديداً اذا بدت لي ريبةٌ توجب اعتزالي عن عرسي وفكرت بمقدار العار الذي سيلحقني اذا كانت نتيجة ابحاثي استجلاء خيانةٍ ولا اعلم اي شيطان مثل فيَّ في تلك الظروف محبة زوجتي وتوجيه ملاحظاتي التصوريه الى اعتبار وتعظيم ما هي دليه من الجمال المؤلف من بعض تناسب في اعضائها يستحسنه ذوقي ولم تكن اعضاؤها مما توصف بهِ الجميلات من النساء على اني في تلك الساعة وانا في تيار الافكار وهواجس الارتياب واحتدام الغيرة والحنق

بالتخجل كانت في عيني ابهى في الشمس فكأنما كانت يساري ممدودة لابرد نار حبي ويميني مرفوعة بالخنجر لاولجه في صدرها قبح الله طمع الانسان وحرصه على كبريائه ومن اين لي وقتئذ بمثل هذه الملاحظات

وقد تضاربت ظنوني ونزلاني نوع من الدوار وكنت اجد حجابًا كثيفًا يحول دون مجرى تصوري وشعرت بفتور في همتي ورأيت من الواجب ان اضطجع لان الوقت حينئذٍ كان الساعة الثانية ونصف بعد نصف الليل فعمدت الى المصباح واطفأته وبدأت في خلع ملابسي وبعد ذلك صعدت الى سريري وغيرت موضع تصوري لاتمكن من النوم ولكن عندما كان يستطرق النعاس الى عيني كانت تعاودني هواجسي فتبعد عني النوم وبقيت على هذه الحالة الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل وقد ضجرت من التقلب بفراشي فلم يسعني الاَّ ان قمت وجلست الى جانب النافذة التي تطل على فسحة الدار السفلى وبعد قليل سمعت وطء اقدام خفيفة نازلة على السلم باحتراس وتمهل فخفق قلبي وقمت بتانٍ واخذت فردًا محشوًا بالرصاص ودنوت من النافذة وكنت اسمع وطء الاقدام النازلة على السلم وفي تلك الدقيقة الصعبة تجلت امام تصوراتي ضيقة مركزي وهالني امر ما انا مقدم عليه وترجح عندي ان رجلاً يختلف الى زوجتي واني مندم على قتله وتصورت اني احاكم كقاتلٍ وان الناس يهجون بقصتي وبالاكيد كنت من جرى هذه التصورات في عذابٍ لا يطاق وبينما انا على هذه الحالة رأيت شبحًا خرج من باب السلم واخذ طريق باب الحارة وهو يطأ الارض على رؤوس اصابعه ويمشي مشيًا خفيًا فصوبت نحوه الطبنجة تصويبًا محكمًا بحيث لا يطيش رصاصها واوشكت ان اطلق النار وكان الشبح قد خرج من تحت الرواق وصار في العرصة المجاورة للباب فرأيته متشحًا بردا ابيض ودلتني هيئة جسمه على انه امرأة فحولت عنه الرصاص واطلقت النار وصرخت مكانكِ يافاجرة وللحال سمعت صرختين عظيمتين وسقط الشبح على الارض وسمعت عند سقوطه رجة مثل سقوط الخشب على الارض وقد علمت ان احدى الصرختين صادرة من المرأة التي اطلقت عليها النار لكن لم اعلم من الصارخ غيرها وكانت قد تمثلت لي ثورة الانتقام ممن يغتابني ويغشى بيتي ويخرج منه سرًا فاسرعت وخرجت من غرفتي بلا حذاء الى الرواق الصغير المودي الى باب السلم وكان الظلام شديدًا وما دنوت من باب السلم الاَّ وعثرت بجسم انسان منطرح على الارض فسقطت سقطة عظيمة وصادف سقوطي عند اول السلم فهوى جسمي من

الدرجة الاولى الى قاعدة المنعطف وبينها وبين الدرجة الاولى اثنتى عشرة درجة فشعرت بخدر في كوعي وارتخاء بمكبي وتمل في راسي على اني قمت مسرعاً وصعدت السلم وربما لمست قدماي جسماً في اول الرواق انقضت عليهِ كالبازي واخذت رأسه بكلتا يدي وقصدت ان اجهز عليهِ خنقاً ولكن ارتعش جسمي عندما علمت ان المنطرح على الارض هي امرأة ... زوجتي نعم زوجتي لاني لمست العقد الكهربائي في عنقها فمن يقدر ان يشرح ذهولي واختلاط عقلي وانا على تلك الحالة في ظلام ذلك الليل عندما كانت جميع اعين الناس والحيوانات مغمضة بالراحة والسكينة فاسرعت الى غرفتي واوقدت المصباح ورجعت فرأيت زوجتي ملقاة على الارض والدم يخرج من فيها فهالني هذا المنظر واحسست بنوع من الشفقة على ان عاطفة الشفقة كانت معقودة بالميل الى الانتقام ومع ذلك فلم يسعني الاّ ان حملتها وادخلتها الى غرفتها ووضعتها على سريرها وهي كالمائتة وكانت الغرفة منارة فسعيت لاوقظ الخادمة فلم اجدها في غرفتها ففطنت ان التي اطلقت عليها النار لا بد ان تكون الخادمة فاسرعت ونزلت السلم وبيدي المصباح الذي تركتهُ عندما حملت زوجتي ولما وصلت قرب الباب الخارجي وجدت الخادمة منطرحة على الارض ونظرت بعيداً منها صندوقة من الابنوس مقفلة وعلمت انها لزوجتي ثم عمدت الى الخادمة ورفعتها من تحت ابطيها فتدلى عنقها على صدرها وخشيت ان يكون اصابها رصاص الطبنجة عن خطاء مني على اني لم ارَ دماً يسيل منها فتغلب عندي ان الخوف اوجب اغماءها وبعد قليلٍ تنهدت الخادمة وسمعتها تقول من غير وعي قتلوني قتلوني اه ياربي ثم خنقتها العبرة واخذت في الاجهاش المتتابع وقد عرتها رجفة واضطراب عصبي وبدأت ان تختلج بين يدي كالمصروع بداء النقطة فقلت لها لا تخافي لا تخافي انهضي ففتحت عينيها ولما نظرتني صرخت اه ياسيدي وسقطت مغمياً عليها فعظم ذلك في خاطري على اني حاولت كثيراً فلم اتمكن من اعادتها الى وعيها والجأني الحال ان حملتها بين ذراعي وصعدت بها الى غرفة زوجتي ورجعت فاخذت الصندوقة الى غرفتي ولما عمدت الى معرفة ما تتضمنهُ وجدتها مقفلة فاتيت غرفة زوجتي واخرجت من جيبها حلقة المفاتيح وسللت منها مفتاح العلبة ووضعتهُ في جيبي واخذت في ان امسح الدم الخارج من فم زوجتي وعلمت انهُ مسبب عن جرح في شفتها حادث عن سقطةٍ شديدة واتيت بارواح عطرة وانشقتها وظلت في غيبوبتها على اني رأيت حركة

الحياة بادية فيها والنبض متواترًا موزونًا والنفس بطيئًا خفيفًا وعدت الى الخادمة فوجدتها تئن انينًا بعيد الفترات وكأنها حينما شعرت بدخولي الى غرفتها خامرها الخوف فكتمت انفاسها وتظاهرت بالاغماء فناديتها مرارًا فلم ترد جوابًا وكنت قد علمت انها متغامية مكرًا فلم يهمني امرها ولما تمثلت في مفاعيل هذه الرواية الظلامية وركدت مهيجاتها في حواسي وانطفأت حرارتها من خاطري قليلاً شعرت بالم عظيم في راسي ويدي فحسرت عن ذراعي فوجدت به جرحًا كبيرًا وقد كشطت قطعة كبيرة من الجلد عن كوعي وشعرت بالم زائد عندما لمستها بيدي ثم لمست موخر راسي وراء الاذن فوقعت يدي على جرح عميق يكاد يلامس سمحاق العظم وقد سال منهُ الدم على عنقي وظهري الى الحزام وكنت قد شعرت بانحطاط قوتي المسبب عن رد الفعل من الاكدار التي ابتدأت ان تتتابع من اول تلك الليلة المشومة وزادت تضاعيفها على نسبة سيرها فانطرحت على مقعد في غرفة زوجتي وتجلت للحال امام تصوراتي ردآءة حالتي واستعظمت وجودي بين قوم يخفرون ذمتي وينقضون عهدي وهم ياكلون خبزي ويتنعمون على مائدتي

ولما كان النهار اخذًا في الظهور سمعت طرقًا خفيفًا على الباب الخارجي فلبثت صامتًا ورأيت ذاتي محاطًا بعقبات وطوارق جديدة وكأن تلك الليلة كانت ظرفًا يمثل شدائد الحياة لان نكباتها كانت تتوالى تباعًا حتى توهمت اني في مرسح التشخيص لا في مشهد حقيقة ولم يخطر في بالي بعد الذي رأيتهُ في تلك الليلة ان انسانًا يطرق منازل الناس قبل السحر وما لبثت ان سمعت القرع على الباب باشد من الاول فجرى دم الغيرة في عروقي وعدوت الى غرفتي واخذت الطبنجة ونزلت مسرعًا ولما صرت في الفسحة السفلى مشيت على رؤوس اصابعي ونظرت في ثقب القفل لارى من الطارق وحينئذٍ تولاني الذهول وتحققت الريبة . انعلم من الطارق في تلك الساعة يا للمصيبة صاحبي امين ورأيتهُ معتمدًا ظهره على الجدار المقابل لباب الحارة واضعًا اخمص قدمه الايمن على ركبته اليسرى وهو يكتب على ورقة فترجح عندي انهُ يراسل زوجتي استدراكًا على ما فرط منها بالامس فازدادت نبضات قلبي وتواتر تنفسي ولكني تربصت مكاني لارى النتيجة وبعد مرور خمس دقائق رأيتهُ طوى الورقة وحرر على ظاهرها بعض كلمات ودنا من الباب الواقف انا وراءهُ ودس الورقة تحتهُ حتى صارت عند قدمي

وما وقع نظري عليها الاَّ وقد جمد الدم في عروقي وغشيتني رهبة الموت وقد

جبنت عن ان امد اليها يدي ولم تكن رؤية افاعي افريقيا بانكر في عيني من تلك الورقة لاني لبثت فاغرًا في ذاهلاً عن نفسي كالمصعوق حتى سقطت الطبنجة من يدي فنبهني من ذهولي صوت سقوطها وللحال انقشعت عن مخيلتي غيوم الانذهال فمددت يدي وتناولت تلك الورقة فكانت في يدي كما لو كانت حديدة محماة الى درجة الحمرة وكانما فيها وفي عيني نوع من السيال الكهربائي السلبي فكنت لا املك تصويب نظري اليها ولا اهتدي الى ما يوافق عمله في تلك الظروف وكأنما سر الحياة وعوامل واسباب حفظ الوجود كانت تلجئ الى مجانبة الدخول في ما يعبث بالوجود و يعترض دون سير نظام الحياة بمفاعيل طبيعية على غير قصد الانسان مما هو من نوع الحركات الغير الارادية

وبعد ان لبثت على هذه الصورة بضع دقائق خرجت من ظلام ذهولي وعزمت على تلاوة تلك الورقة ولا انكر انهُ عندما خطر في بالي تلاوتها شعرت بعظم الدناءة وانفت نفسي من ارتكاب جريمة التلصص والاطلاع على اسرار الناس وتنازعتني عوامل السلب والايجاب فيما اذا كان ذلك مما يختص بالقانون العام ام بي على طريقة حق ملاحظتي تصرف زوجتي وانتدابي الى درء ما يوجب حطة كرامتي وبينما كانت تلج بي اميال الاستطلاع كانت تمنعني عن ارتكاب مثل هذه النقيصة كرامة نفسي وعزة فطرتي فحوات يدي القابضة على الورقة الى وراء ظهري وصعدت السلم ودخلت لانتقد حال الصريعتين فوجدت امرأتي تئن انينًا خفيفًا وانتظم ارسال تنفسها عن قبل فما احتفلت بامرها فتركتها وذهبت الى غرفة الخادمة فوجدتها جالسة تنتحب ولما رأتني اسرعت وانطرحت على قدميّ تبكي وتمنعها بكاؤها من الكلام فدفعتها برجلي وقلت ياخائنة اهذا جزاء من يعاملك بالحسنى والمعروف اوما رأيتِ اشرف من القيادة لتكوني رسول بين فاسقين وتعملي على العبث بحرمة بيت يشملك وقوت يكفلك اجابت اه يا سيدي ارحمني ارحمني ياسيدي قلت قد ضاق نطاق الرحمة عن مثلك يافاجرة وكنت اود ان لا يخطئكِ الرصاص ولا جناح على من يستاصل بعض اسباب الفساد من الارض ولكن سننالين جزاءك واشحت بوجهي عنها وانصرفت الى غرفتي لانظر في امر تلك الرسالة التي كان قبضي عليها كقبضي على ذنب الصل وهو يحاول ان يفرغ في جسمي نفثات السموم

فدخلت غرفتي واوصدت بابها وكان قد اثر فيَّ التعب والتهبت جراحي ووهن عزمي ونشف الدم على عنقي وملابسي ولم اعد قادرًا على البقا في تلك (البقية تأتي)

نصيحة والدة

بقلم الاديبة الفاضلة السيدة سلمى قساطلي في دمشق

(تابع)

ومع ما كانت عليهِ مادام دي لامبير من الحرص على التصنيف وحفظ ما تخطهُ يداها لينتفع بهِ الناس عندما يصير ما تحررهُ المرأة مقبولاً وملتفتاً اليهِ وصاحبتهُ غير معرضة لهزء القوم وسخرهم فقد اشتهر فضل هذه الكاتبة البليغة ونشر كثير مما صنفتهُ الاَّ انها لم تسلم من الالقاب المهينة السخرية التي كانت تُنسب عادة للنساء الكاتبات في ذلك الوقت وقد التزمت مرة لكي تتخلص من ذلك الظلم الفاضح ان تشتري طبعة احد تصانيفها من يد احد بائعي الكتب بثمن باهظ الاَّ انهُ بعد بضعة سنين قد طبع التصنيف المذكور نفسهُ عن غير علمها وصادف من الناس الاَّ القليل منهم اقبالاً واعتباراً

ولما توفي زوجها المركيز دي لامبير لم يترك لها الاَّ ثروة قليلة تحت دعاوٍ كثيرة ولكن هذه السيدة الفاضلة انهت بحكمتها تلك المشاكل وحفظت لاولادها بقايا تلك الثروة فكانت تدبرها بحكمة فائقة حتى سدت حاجتهم لسنين كثيرة . فاظهرت بذلك بانها بالغة بالادارة والتدبير مركزاً سامياً كبلوغها ذلك في العلم والفضيلة مع قلة ثروتها وكانت تظهر لدى الجميع بحسن تدبيرها ووضعها الشيء في محلهِ وامانتها واهتمامها كانها ذات ثروة واسعة

وقد ابتنت بيتاً متقناً في باريس فكان يجتمع لديها فيهِ احسن المعتبرين

في المكانة والعلم والخصال الحميدة وحتى صار الاجتماع في ناديها مقبولاً ومفضلاً ومفيدًا اكثر من كل اجتماع بباريس ولكنها مع ذلك لم تسلم من طعن الحسّاد والجهال وسهامهم السامّة الاّ ان سمو عقلها وشرف نفسها الطاهرة واصابة فلسفتها وعلو مداركها وغزارة حكمتها قد اظهرت افتراء وتمرد المعتدين فالاكرام لاميالها الصحيحة نحو تقدم وارتقاء ابناء جلدتها في مدارج المدنية والفضل والاحترام لذوقها السليم وللمحبة الخالصة التي قدمتها وثبتتها للكل وبكل من اقترب اليها جعلاها في اسمى منازل الاعتبار والتجلة واوجدا في معاصريها اعتبارًا للمرأة وميلاً لتقدمها ورفع شأنها اما الكلام الفاسد والتصرف الغير اللائق فلم يوجد لهما اثر في منتدى هذه الفاضلة

اما تصرف هذه المركيزه في بيتها ومع معارفها فكان مداره الانسانية والحزم واللطف وفي اعمالها الثبات والاستقامة والصبر والتأني والانصباب وكان من مبداها معاملة المغايرين بالتخويف لا بالانتقام وكانت تقول النفس الدنيئة صارمة منتقمة واما الشريفة فرحومة رءوفة. وقد صنفت هذه الفاضله كثيرًا فاول مصنفاتها كتاب في المجد الحقيقي وتلاه غيره وصنفت نصائح الوالدة لابنتها ونصائح الوالدة لابنها ونبذة في الشيخوخة وافكار على النساء وعلى الاميال والغناء وهذه التصانيف من تصانيفها قد امتازت خصوصًا. وقد توفيت سنة ١٧٣٣ كما تقدم بشيبة صالحة تاركة وراءها من الاثار ما يحيي ذكرها للابد وياتيها بالفخر العظيم كما لو كانت حية

اما ارشاد المركيزة دي لامبير الذي ارسلتهُ لابنتها الوحيدة ماري تريز فهاك ما قالتهُ ملخصًا

ابنتي العزيزة الوحيدة ماري

نصح والدة محبة اقدمهُ اليكِ ليكون نبراسًا لسلوكك في اعمالك وعكاز وقاية في سيرك في مهامهِ الحياة وتجاربها فتستنيري بهِ ولا تعثري فتكون حياتك راحة داخلية لكِ ومثال الفضيلة والقدوة الصالحة لبنات جنسك فاسمعي يا بنتي واصغي وافهمي ما اقولهُ لكِ وتدبريه واجعليه قلادة لعنقك وحجرًا كريمًا على رأسك . واعلمي

انهُ لقد اهمل تعليم الاناث في كل الازمنة ولم يلتفت الاَّ لتعليم وتهذيب الذكور لان النساء اعتبرن كجنس عديم الاهمية لا يستحق الالتفات ولهذا تركن بدون مرشد ولا معين يهتم بهنَّ وفات المهملين عظم اهمية جنس النساء ونسوا بان نصف العالم مولف منهنَّ وانهم مرتبطون معهن بوثائق متينة لا تفك وان سعادتهم وتعاستهم تقومان بهنَّ وهم غير جاهلين شدة احتياجهم الى شريكات حكيمات لتدبير احوال المعيشة وسعادة الحياة فما كان يضرهم لو سلموهنَّ العلوم منذ الطفولية واوجدوا فيهنَّ روح الانصباب عليها في الوقت الذي يكنَّ بهِ شديدات التأثير والقبول عوضًا عن ان يكلون امرهنَّ الى حاضنات ومربيات ليس لهن الاَّ التهذيب الدارج الان ليبثوا فيهن مبادي دنيئة تجذب وتهيج اميالاً غير حسنة وتقوي الاباطيل الكاذبة بدلاً عن الفضيلة الحقيقية اما كان الاوفق والافضل لطائفة الرجال ان يهتموا ليجعلوا النساء اهلاً للفضائل ووريثات للاداب فينتقل ذلك بسهولة كلية من الامهات الى الاولاد فيكون بهِ تعويض عما بذلوه من الجد والكد في تعليمهنَّ وتهذيبهن

فياعزيزتي لم يقرأ او يسمع عن شيء اضر واغرب من العلوم التي خصصت للشابات والاداب والمسرات التي أُعطيت لهنَّ ذلك لانها خالية من اثار الفضيلة وتباين الفائدة الحقيقية . وما هي الأ عامل قوي لتقوية الاميال للزينة الخارجية والمحبة الخاصة والرمح في ميدان الرخاء والهيام في قفار المفاسد والزيغ . ومما يضحك ان الاكثرية على اعتقاد بكون هذه المخصصات لا تضر بالشابات شيئًا لحسن طويتهنَّ وبالحقيقة ان هذه المبادي والاراء عدوان للهيئة الاجتماعية ووبال على النوع الانساني باجمعه والفكر بصوابها ظلم يخالطه جنون ولقد اعتقد الرجال وتبعهم النساء بالاعتقاد بان هذه المظاهر الباطلة نافعة للهيئة الاجتماعية وهي منتهى الاداب التي يمكن ان تتسربل بها المرأة وقد فاتهم بانهم على شطط بما اعتقدوا وزيغ بما ذهبوا فان المرأة اسمى مما ظنوا ومقامها المهم في المجتمع الانساني يتطلب اتشاحها بالعلم الحقيقي وبطبيعتها قبول لهُ كالرجل وهي احرى منهُ بهِ والعلم الحقيقي ما نوَّر العقل ورفع المرء عن المظاهر الخارجية والفخفخ والزيغ وحلى النفس بالاحتشام والفضيلة والتقى وقاد الى الحقائق والشعور الداخلي بها وعلم الانسان ما يجب . وبين هذا وما يظنونهُ علمًا كافيًا للنساء بون عظيم وكلاهما على طرفي نقيض

العلم الصحيح المثمر واجب للمرأة لما لاعمالها وافكارها من التأثير في الجيل الحاضر والاجيال المقبلة ايضًا . فيجب ان يقدم لها ليثمر فيها وينمو بنمو نقدمهم ونقدمهن اعضاء للهيئة الاجتماعية والاجيال كلها ولا يكتفى بالعلم

(البقية تأتي)

الشهامة والحب

(تابع)

— مهلاً يا عزيزتي فما كنتُ اعهدكِ تكتمين ما عندكِ عن صديقة مخلصة لا تروم الا راحتك . او يخال لكِ انني ما علمت من يوم وصولي بان طي الكتمان اسرارًا تودعينها القلب فتمزقه وحزازات في الصدر من حاجات با لنفس صارت عذابًا وهماً . . . فما وراءك يا فيليس وما هذه الدموع التي لا يزال اثرها بين جفنيكِ يدل على البكاء والنحيب . تكلمي يا عزيزتي وبوحي بهمكِ لي فان الغم الذي تطلعين عليه صديقةً مخلصةً تقل مرارته وتبرد حرارته

— لست ادري باي عبارات شكر وثناء اقابل جميلكِ واهتمامكِ بشأني . ولكنك يا سيدتي على غير سواء السبيل فليس لديّ مكتوم ابوح به لك ولا سرٌّ اطلعك عليه

فتظاهرت مدام ديز ولير بعدم سماع جواب الفتاة واردفت تقول

— قد يمكن ان تكوني غير راضية عن قرانك المزمع بالكونت دالبون ولكنه يا بنية في منتهى القصد وغاية الموافقة فان الكونت من خيرة الرجال واحسنهم

— ان ابوي لم يحدثاني بعد عن هذا القران الا تلميحًا ورمزًا وانا ايضًا لم افكر فيه البتة

— فماذا اذن — لا شيء يا سيدتي

— لا تحاولي الانكار . وانني الومك واعتب عليك لعدم الثقة بي فتكلمي يا عزيزتي وكاشفيني باسرار نفسك لاقاسمك الهم والكدر فانني اتألم لمرآك كئيبةً حزينةً

— لا احزن الله يا مولاتي لك قلبًا

— ترى أيكون فراق عشير صباك سببًا لاحزانك . فقد كنتما على ما اظن متعاهدين على عدم الانفصال مدى الحياة

— ان فراق الكونت ريموند احزننا جميعًا وكدّر الاسرة باجمالها وعلى الاخص ابي وامي فانهما كانا ينظران اليه كواحدٍ من اولادهما ويحبانه حبًا شديدًا

وكان بين سائر المجتمعين حديث اخذ بزمامهِ الكونت دالبون وكان كلما تقدم بالحديث يرتفع صوتهُ شيئاً فشيئاً حتى ان السيدتين قطعتا حديثهما لسماع كلامهِ فاذا هو يقول

— نعم يا حضرة المارشال ان الصرامة مع هولاء الاشقياء لا تتعدى حدها مهما عظمت لان جسارتهم واقول وقحتهم تتزايد يوماً فيوماً . ولقد وصلت اليوم جسارة احدهم الى حد انهُ مرّ بجواده على جسد رجل من خدمي فما قولك — وكيف كان ذلك

— عجت بطريقي على قرية تبعد خمسة او ستة فراسخ من هنا طلباً للراحة فلقيت في نزلها المركيز دي ترايل يستريح من وعثاء الطريق فطلبنا الطعام في غرفة فتحت نوافذها وهي غير مفصولة عن التي بجانبها الا بناصل من الخشب رقيق جداً . واقمنا ساعة نتجاذب اطراف الحديث فادّى بنا الكلام الى ذكر خصوصيات وشخصيات ذكرناها بصوت ربما كان عالياً . فسمعت في عرصة النزل صراخ رجل ملقىً على الثرى فانحدرت اليهِ فاذا هو خادم لي رماهُ راكب صدمهُ بجواده وسار وسألتهُ عن امره فقال ان رجلاً من الهراطقة امتطى جواداً وبذل في شاكلتهِ المهماز فسار ينهب الطريق ولم يكن حذّراً احداً فصدمني والقاني على التراب معفراً . ولما رأى ذلك اوقف جوادهُ وصاح بنا جميعاً « قولوا للكونت دالبون سيدكم ان يتحاشى ذكر ربات الجمال في منازل الطريق . واذا لم يرضهِ هذا الانذار فانهُ يلقى في مونتمور الكونت ريموند بيرنجه دي موج متأهباً لخدمتهِ » قال هذا واطلق لمطيتهِ العنان فخفى عن الابصار وهي وقحة لم نسمع بمثلها قبل فمن هو هذا الكونت يا سيدي

فاجاب المركيز — هو شاب ربيتهُ ولم يرد ان يعتنق الكثلكة فغادرنا لسوء الحظ وبات تحت سلطة مربيهِ يبث فيهِ التعصب والتمسك بمذهب الاصلاح قال ساعلمهُ الدين بضربات المرهفات واوقفهُ على حده فيعلم ان الهرطقة لا تمنع الادب وهي مثالة ساعطيه اياها تكون لهُ عبرة ومثالاً فلما طرقت تلك الكلمات اذن فيليس علا محياها الجميل اصفرار واجابت بصوت ارجفهُ الغيظ وهدأهُ الحلم وقالت

— ولكنهُ رجل يرد الصاع صاعين ويعيد الضربة ضربتين فلا تعلل النفس بامال ربما لا تتحقق يا حضرة الكونت كما تريد

— انني اعذر اهتمامكِ بشأنهِ ياسيدتي ولكنني اؤكد لكِ بانني لا اتنازل عن حقي في هذه المسألة فقال المركيز ولكن كيف يطلب بروتستنتي برازاً ومذهبهم يحرم ذلك تحريماً كلياً – قال فلذلك ارى ياسيدي ان لا دخل للبراز في معنى كلامهِ . وبما ان الكفرة عالمون

بان جيوش الملك العادل ستهاجمهم فهم عازمون على المقاومة . وحيث انني نائب الملك في هذه المقاطعة فانني عدوّهم الالد واكبر مقاوميهم ففي ساحة القتال ينتظرني الكونت دي بيرنجه وهناك سليقاني خصماً عنيداً وعدوّاً لا يقاوم

وما اتمّ الكونت دالبون عبارتهُ حتى فتح الباب ودخل الاب سيلستين فقال

— اراك تنسى يا حضرة الكونت ان هذا الشاب الذي تحكي عنهُ اخ وابن لعائلة دي لاشارس — لا انسى ياسيدي شيئاً ولكنني اعرف الناس بعائلة دي لاشارس فهي لا تتخذ ولداً من كان للملك والدين عدوّاً . ومع ذلك فاذا كانت الحدة قد خرجت بي عن حدود الاعتدال فاهنت احداً من الحاضرين فانا اطلب عذراً وعفواً

— ليس هنالك ما يستوجب ذلك ياسيدي الكونت . فهمست مدام دبز ولير في اذن فيليس قائلة

— بان سرّك يا مليحة فان غيرة هذين السيدين قد كشفت عنهُ النقاب

فلم تجب فيليس عن ذلك بشيء فانها كانت ناظرة الى الكونت دالبون مخاطباً ابيها قائلاً فنسافر غداً الى قصر دي لاشارس لنشاهد ما يجري هنالك ونعمل بحسب ما نرى فان العساكر الاني بامرتي تنتظرني على مقربة من هنا

— لا يمكنني السفر غداً فان اموراً ذات شأن تستدعي حضوري هنا فاذا شئت ان نؤجل رحيلنا الى ما بعد الغد يكون ذلك اوفق لي — ان كان ذلك لخدمة الملك فليس لي ان اقول شيئاً — نعم ياسيدي انني لا اتخلف عن المسير غداً الاّ من اجل ذلك

— حسن فافعل كما تشاء

وقضى اصحابنا بقية السهرة بحديث متقطع غير ذي بال اما فيليس فلم تنه بكلمة قط وما استغرب احد سكوتها لان الغاية من زيارة الكونت دالبون لم تكن مجهولة ولما حانت ساعة الانفصال للرقاد سألت اباها ان تخلو بهِ في غرفتهِ فاذن لها فلما خلت بهِ انطرحت على قدميهِ تبلها بدموعها وتقول

— عفوك يا ابي فلقد اتيت ذنباً لا بدّ لي معهُ من حلمك — وما ذاك يا بنية

— رأيت ريموند . . . فلقد ذهبت الليلة لمقابلتهِ عند نوجان

فاخذ الاندهال من المركيز لجسارة ابنتهِ ماخذاً عظيماً وصاح بها معنفها فاردفت تقول : اجل يا ابي فلقد القيت بنفسي تحت طائلة غضبك لكي انذره بالاخطار المحيقة بهِ

— وهل انذرته بكل خطر وقصصت عليهِ كل ما دار بيننا من الحديث

— اعلمتهُ بكل ما يجب ان يقف عليهِ فقط — وما كان جوابهُ

— وا اسفاهُ يا ابي انهُ مصرٌّ على ضلالهِ ولم يرد ان يصغي اليَّ

— يا لتعسهِ . . . ولقد ضاع اذن شعيكِ بالباطل وذهبت اتعابك سدى

— ليس من كل الوجوه على الاقل فانهُ قد أُنذر بالخطر وهو سينذر اخوتهُ دون ريب فنكون قد منعنا بذلك سفك الدماء

— انك لا تعرفين نبلاء البروتستانت واخص منهم ريموند حق المعرفة فهم لا يثنون امام امرٍ من الامور . وانا ارجوان تكوني قد توقفت في هذه الزيارة عند حد النصائح غير متعرضة لذكر الماضي ما كان بينكِ وبين ريموند — عفوك يا ابي فقد ذكرنا الماضي ونظرنا الى المستقبل — وكيف ذلك ايتها العزيزة

— قلت لريموند انني احبهُ ما دام مصرًّا على ضلالهِ محبة الاخت اخيها

— حسن وبعد ذلك — حلفت لهُ ان لا املك قلبي سواه وان لا اهب يدي لغيره فمتى فتح قلبهُ لنور الدين القويم اكون لهُ بكليتي

— كيف ترتبطين بمثل ذلك على علمك بان اسباب قرانك بالكونت دالبون معدَّة وقد اعلنت لك ارادتي واعلمتك ان لا بدَّ منها فاعلمي الان انني قد رهنت كلمتي وعقدت قولي فلا تميلي عن سبيل الطاعة

— وانا ايضًا قد رهنت كلمتي فلا احنث بيميني ما دام فيَّ رمق . . . وعدت ريموند وانا احبهُ من كل قلبي بان اتخذهُ زوجًا لي فلهُ ساكون امرأة او لا فلا اكون لسواهُ مطلقًا

— لقد جددت الليلة وعدي للكونت دالبون افتريدين ان اكون في اعينهِ رجلاً لا كلمة لهُ ولا شرف

— اذا شئت فانني اخاطبهُ بحرية فاوقفهُ على حالتي واعترف لهُ بغرام قلبي واذا كان كما يجب ان يكون رجلاً شريف النفس كريم الطبع فهو يبتعد عني من تلقاء نفسهِ

— لا ادعكِ ابدًا ترتكبين مثل هذا الغرور . فكيف ترفضين يد من هو في مقدمة النبلاء ورأس الاغنياء المقربين من الملك الظافر . فاعلمي ان لا بدَّ من اقترانكِ بهِ فتبصري . وها انا امهلك بضعة ايام تتفكرين في خلالها ولكن على شرط ان لا تحاولي مقابلة ريموند ولا مراسلتهُ

— لا احاول ان اراهُ بدون اذنك وارادتك ولكنني اقسم لك انني لا اقترن الا بالذي وهبته قلبي واسكنته مهجتي

فاطرق المركيز دي لاشارس ساعة ثم اقترب من ابنتهِ وخاطبها بحنوٍ فقال:

— اذهبتِ يا بنية بقية املي وليس بين المصائب التي يفتقدني بها الله اعظم من ان اراكِ تعيسة وانا على يقين من انكِ ستكونين دائمًا بين التعاسة والشقاء اذ انك لا تريدين ترك من احببتهِ منذ الصغر ولا تقدرين على ان تكوني له فترفضين بذلك كل افراح الدنيا وملذات الحب ولا تذوقين من الهوى الا عذابهُ . فاضرعُ اليكِ يا فيليس بان ترضي بالمهلة التي اقدمها لكِ وتتفكري فعساكِ ترجعين عن اصراركِ وتعودين الى ما ارجوهُ لكِ

سافعل يا ابي كل ما هو في طوقي لكي اطيعك ولكنني اضرع اليك ايضًا الاّ تلزمني مشاهدة الكونت دالبون فان نفسي تأباهُ لما يظهره من الغيرة الوحشية والظمأ لشرب دماء اولئك التعساء . ولقد عرفت من ريموند مقابلتهما في النزل الذي حكى عنه افلا تجد انه اساء الادب باعلانو زواجنا قبل ان امنحهُ رضاي

— لا يفيد الكلام في هذا المعنى فلندعهُ . وانا اطلب منك يا بنية امرًا واحدًا وهو ان تجلدي على مقابلة الكونت دالبون ومجالستهِ اذ كيف يمكن ان تحبيه بدون ان تخالطيه وكيف يربح دعواه اذا حظرت عليهِ المدافعة

— لا يجدي ذلك نفعًا فان قلبي هو القاضي عليهِ وقلبي لا يقبل الرشوة ولا يتغير فباركني يا ابي وصلِّ من اجلي اذا شئت ان اقوى على احتمال الحياة

قالت هذا وخرجت بعد ان ضمت والدها فقبلته وهو ينظر اليها بعينين ملؤهما الدموع

الفصل التاسع — القتال

اشرقت شمس اليوم الثالث لمرور الحوادث السابقة على فارسين ماشيين سائرين على حذرٍ كأنهما يخشيان رقيبًا وكانا يتحدثان بصوت خافض فلما صارا في منعرج الطريق قال الاكبر منهما سنًا لرفيقهِ

— ان النبأ الذي اتاك صدق لا ريب فيهِ فانني يا حضرة الكونت لم امرَّ بقرية الاَّ رأيت فيها الجنود صفوفًا والرماح مشرعة . ويخال لي ايضًا ان وراء الادغال جواسيس

وارصادًا وان عين الرقيب تتأثر اقدامنا . فاجابهُ الشاب وهو الكونت ريموند دي بيرنجيه — ان الذي انبأني يا سيدي البارون لمصدر ثقة لا يرتاب في صحة قولهِ . وانا اعلم انهُ لا يخدعني ولو أطبقت السماء على الارض . ولقد سأني ان مجلسنا ارتأى وجوب الاجتماع معًا في عليةِ الاحوال من الارتباك فان اعداءنا يتخذون اجتماعنا حجة علينا . ومنع النساء والاولاد من حضور الاجتماع لما يزيد في حججهم ويقوّي دعواهم فنكون بذلك قد عرّضنا بحياة اخوتنا باطلاً . قال انا من رأيك ولكن الرؤساء ارادوهُ فلا بدّ من الاذعان . على انني ارى بين الاخوة المتعصبين الذين يطلبون الثورة بحجة الاستشهاد قومًا ارتاب واشك بخلوصهم وامانتهم فان اخبارًا يومية تطير الى الحكام عن ادنى اعمالنا ومساعينا . قال ريموند

— اما انا فلم يداخلني قط فكر كهذا فانهُ في عيني فظيع قبيح . فقال البارون

— بيننا يا حضرة الكونت قوم لا عائلة لهم ولا مال فهم يجاهرون بالعداء ويطلبون الثورة ولا يخافون على شيء ما . وارى انهم سيسيرون بنا الى الهلاك العاجل . قال اعلم ذلك علم اليقين ولهذا ترائي قد نذرت تضحية حياتي . فاجابهُ البارون اما انا فقد عزمت على المهاجرة فان لي امرأة وبنين وامرأتي تلحّ عليّ الحاحًا شديدًا . قال انها لمصيبة فيما تطلب . فاذهب يا سيدي واهجر هذه البلاد وعش بعيدًا عنها بامان وسلام مع اهلك واحبائك فان ذلك مباح لك . . .

وما اتم الشاب هذه العبارة حتى اتبعها بتنهد عميق وصمت فقال رفيقهُ — يسرني انك ترى رأيي فيما يختص بي ولكن ما يمنعك عن ان تنجو انت ايضًا بنفسك قال اما انا فليس لي امرأة ولا بنون ولن اتخذ امرأة قط فحياتي وقف لمذهب الاصلاح . وحينئذٍ طرق آذانهما صوت وقع اقدام ولاح لهما فلاّح فعرفاه انهُ من البروتستانت فسألاه عما جاء به الى تلك الطريق فقال — اتينا التصر لنجتمع كالعادة فطرق الرؤساء بابهُ الصغير فلم يجبهم احد . فلما رأوا ذلك انفردوا للمشاورة وكان من امرهم انهم اختبأوا وراء الاشجار وامروني بان ادخل التصر من نافذته فتسلقت السور وكسرت زجاج النافذة ودخلت فلم اجد فيهِ احدًا فعدت اليهم بالخبر فامروا بكسر الباب فاقتلعناهُ ودخلنا وفعلنا بالابواب الداخلية ما فعلناهُ بالباب الخارجي لانها كانت موصدة . وانا الان ذاهب لدعوة القس جامن وانذارهِ بان المنبر بانتظارهِ . فقال ريموند حسن فاذهب في سبيلك . والتفت الى

رفيقهِ فرأى على وجههِ سمات الاضطراب والقلق وسمعهُ يقول : وطئت اقدام الاعداء ارض مجمعنا ونحن لا نفيق . . . وسيزيد القس جامن في الطنبور نغمة فانهُ سيثير بخطبهِ كامن الغيظ ويهيج ساكن الحقد لان أحدنهُ متى رانت عليهِ نقودهُ الى حيث تزل القدم فلا ينفع الندم . . . وارى خيرًا لي ان الوي عنان جوادي واعود على اعقابي . فقال ريموند : لم يعد ذلك في وسعك بعد ان رآك الرسول ما لم تفارق فرنسا قبل الغد . وتلقب في هذه الحالة بالجاحد الشرير والجاسوس واذا استعرت نارُ الحرب فمن يدفع عنك غيظ ابناء المذهب . فاطرق برأسه ساعة الى الارض ثم قال : اننا في قبضة الجهلاء من ابناء المذهب كعصفورة في كف طفل فكيف العمل . ويا ليتنا ننفصل عنهم ونرفع الى الملك عريضة نطلب فيها رفع المظالم عنا واباحة حرية المذهب لنا ونثبت لهُ بالبرهان القاطع صدق طويتنا وخضوعنا واننا امناء مخلصون للملك مطيعون للشرائع . قال ريموند لقد سبق لنا مثل هذا ولم يجدِ نفعًا . قال وما على البروتستني اذن في فرنسا . قال ان يسير مع التيار او يهاجر البلاد . فتنهد البارون وصمت اما ريموند فانهُ اردف يقول : انّا وصلنا القصر وسأندد بالروساء على ما اقدموا عليهِ . واذا لم يخب ظني فسيكون عملهم هذا فاتحة للشر وواسطة اصلاء نار الحروب . اما انت فلا تبدِ رأيًا ولا تظهر اشمئزازًا فانهم ينظرون اليك بغير العين التي ينظرون بها اليّ

وكان البروتستانت يلتئمون في سرداب قصر دي لاشارس فلما دخل ريموند ورفيقه وجدا المجمع غاصًا بابناء مذهب الاصلاح وكلهم شاكي السلاح والصمت شاملاً جوانب النادي . فجال ريموند بطرفهِ حتى وقع نظرهُ على كاهن كان بعد جامن اكثرهم حدة وميلاً الى الثورة والعصيان فقال لهُ : أأنت الذي أمر بكسر ابواب هذا القصر يا سيدي قال نعم وارى ان لنا الحق بذلك فنحن في بيت الجاحد المنافق فقال ريموند ليس لكم مثل هذا الحق سوى في بيتكم ولقد عرضتمونا بما فعلتم للحكومة واقتصاصها وكان الاولى بكم ان تنتظروا ريثما يلتئم المجلس باجمعهِ فكنا دون شك نعارض هذا الرأي الوخيم . قال وكنا نخالف رأيكم وننفعل بغير ارادتكم فكفى بالله وجلا وترددًا . . والى مَ بطأ العدوّ المستبد هامة حقنا بقدم ظلمهِ وجورهِ وحتام نطأطئ الرؤوس صامتين ونوافق على هضم حقوقنا صاغرين . لقد طفحت الكأس وازفت الساعة ولم يبقَ في النفس منزع الى الصبر . . . ام كنت تريد ان ترجع الاخوة عن استماع كلمة الله وتدع الصلاة لان الكافر قد

اغلق دونهم ابوابهُ . فيا اشباه الرجال ولا رجال أتتقهقرون امام العدوّ وترضون بالذل وانتم اصحاب الحق ولا تخجلون . انكم لستم اهلاً لان تحرزوا كرم الرب فصلوا واضرعوا علكم تفلحون . وسيأتيكم الكاهن الصالح فيعيد اليكم صوتهُ ما ينتصكم من الحمية والغيرة وينادي فيكم صارخاً : رماحكم يا كرام العشيرة لا تقفوا واهجموا على الاعداء هجمة تدك الجبال

فصاح الجميع بصوتٍ واحد هاتفين : السلاح السلاح . فاخذ ريموند يحاول تسكين الشغب وازالة الهياج فلم يكن لكلامهِ تأثير واعترضهُ الكاهن فقال : لقد علمنا الآن ما كان امس وسترى يا اخي ان الرؤساء يردون الينا الحقوق التي حاول الاعداء ان يمنعونا اياها . فلقد جاء دالبون الكافر ودي لاشارس الجاحد فقيدوا الحارس الامين وقادوه الى السجن واغلقوا في وجهنا ابواب القصر وقال السفيه : خيرٌ لي ان اهجر قصر آبائي من ان ارضى بتسليمهِ لاعداء الله والملك فقال ريموند : أكان المركيز دي لاشارس مرافقاً للكونت دالبون . قال نعم كان بصحبة صهره الذي يعدهُ لابنتهِ فيليس . فسكت ريموند وعاد الى مكانهِ مضطرباً فاردف الكاهن يقول : عن قريب يأتيكم المحترم جامِن بكلمة الرب فصلوا الآن الى الله واحمدوهُ على انهُ يسلم اليكم اعداءكم . فصمت الجميع وكان ريموند قد جلس ووضع رأسهُ بين كفيه وغاص في بحار الافكار وكان مناظرهُ يسمى القس فرديت وكان يبغض ريموند بغضاً شديداً فنظر اليهِ وقتئذٍ نظرة الشامت المنتصر وقال لنوجان مربيهِ : عُد بتلميذك الى سواء السبيل فانهُ يحود عنهُ . قال دعهُ يا اخي فانهُ يصلي . قال لا بل هو يهجس . ثم خفض صوتهُ وقال : ويتقلب على نار الجوى والعذاب فاعشق بالابن دي موج ابنة دي لاشارس . وحينئذٍ سمع بالقرب من الباب حركة عقبها دخول الواعظ جامِن الذي كان الكل بانتظاره فوقف الجميع اجلالاً وتكرمةً ومدت اليهِ الاكف من كل صوب . اما هو فسار في وسطهم بوجه صارم وادار نظرهُ حتى وقع على فرديت فتبادلا لحظاً معنوياً لفت جامن على اثرهِ الى الشعب الملتئم وبدأ يخطب فيهم فالقى عليهم عظة طويلة من اغرب ما سمع السامعون دعا فيها المؤمنين الى الجهاد وشق عصا الطاعة ومثّل لهم مجد رب الجنود بعبارات التوراة واقوال الكتب ولما ناهزت خطبتهُ الختام تلألأت فصاحتهُ ببلاغة مؤثرة هائلة وحمية وحشية بحيث كان في امكانهِ ان يقود ذلك الجمع عن آخره حتى الى الموت كأنهُ الى عيد مجيد فقال : ربِّ هب جنودك القوة وأنزل على قلوبهم الشجاعة وادفع اليهم اعداءهم كما سلمت الفلسطينيين

الى شعبك . . . لسنا لندع الظلمة المستبدين يذبحوننا كالاغنام فنحن نتسلح بسيف العدل ونستل حسام الحق وندفع المعتدين عن حقوقنا المقدسة فاعضدنا يا رب القوات بيمينك واجعلنا سيف عدلك امين . وما اتمّ الواعظ كلامهُ حتى دخل رجل فقال : اعلموا يا اخوتي ان المركيز دي لاشارس والكونت دالبون يقطعان الطريق المؤدية الى ههنا بفرقة من الجيش . فصاح الخطيب الله اكبر انهُ يلقي بين ايدينا الكافر والجاحد معاً فسنهاجمهما فقام ضابط طاعن في السن وقال : مهلاً يا ابي فانكم تعرضون بنا للخسارة . والاولى ان نقتصر على المحاصرة في هذا القصر فهو منيع . قال خلِّ عنك الجبن فالله معنا ويكفي بان نظهر امامهم ليهربوا ويشتت الله شملهم . قوموا بنا نخرج عليهم باصوات التهليل والتكبير . فقام الجميع كرجل واحدٍ وارتفعت الاصوات بالترتيل ونشيد الانتصار والظفر وخرجوا الى عرصة القصر بلا نظام وحينئذٍ ظهرت عساكر الملك على قمة التل المقابل للقصر وكان يقودها المركيز دي لاشارس والكونت دالبون فصاح لما رأى جمع البروتستانت : هوذا الاعداء فلنبددن شملهم فقال المركيز : رويدك يا سيدي فالصلح اولى ولا يجوز لنا ان نريق دماء بني الوطن وها انا سائرٌ لمكالمتهم . قال انما انت تعرض بنفسك فهم يبغضونك لجحدك مذهبهم فلا يبعد ان يتلقوك برصاصة قد تكون القاضية . قال انما اموت في سبيل قضاء واجبي والموت يعذب لي في مثل هذه الحال . ومن وجهٍ آخر فالقصر ملكي وما ينكر عليَّ احد سؤالي كيف أراهُ ماهولاً . قال هذا ووخز جواده وتقدم بثبات واقدام غريبين

فلما رأى البروتستانت اقدام المركيز اطلقوا السنتهم بالوعيد والتهديد . وكان الكونت دالبون يتبعهُ فاشار فرديت الى احد رماة البندق فصوّب بندقيته وكان ريموند يلاحظ حركات الرامي فمسك ذراع الرامي وقال — ان شخص المندوب مقدس عند كل الشعوب فعار علينا ان نغدر بالمركيز وهو يشير الينا بمنديل ابيض قال نعم ولكن الاخر قال انا لهُ فهو خصمي وسلفتي . فصرخ جانِن : على الجاحد الكافر فاندفع ريموند من مكانه اندفاع السيل ووقف امام المركيز فحماهُ وصاح : انهُ لغدر قبيح وخرق للحرمة لا نرضى بهِ . فخفض البروتستانت بنادقهم مخافة ان يصيبوا ريموند اما هو فاردف يقول : لقد كدتم تلبسوننا الخزي والعار ثم لفت نحو المركيز فقال : طوّحت يا سيدي بنفسك وعرّضت ذاتك للخطر فماذا تريد . قال اريد ان اعرف من هولاء الجماعة من الذي سمح لهم بكسر

ابواب قصري وادعوهم الى اخلائهِ على عجل والاَّ فانهم يقعون تحت طائلة العقاب . فصاح به جامن وقد رانت عليهِ الحدة . كسرنا ابواب قصرك لانك اغلقتها ايها الكافر في وجهنا . وكنا قد اخترناه ملجاً لنا نقيم فيهِ الصلاة ونسبح المنا ونؤدي فروض العبادة التي تحظرونها علينا فعزَّ عليكم ان ترونا مجتمعين بعد ان خربتم هياكلنا وجرَّدتم في وجهنا حسام الاضطهاد وسيف النقمة . فاعلموا انَّا لانضع السلاح ولا نعود عن الجهاد في سبيل الصلاح ما لم تطلق لنا حرّية مذهب الاصلاح فانكفئوا عن البغي لئلا نرد كيدكم في نحوركم والله يرد الكيد في نحور الباغين . فتظاهر المركيز بانهُ غير سامع لكلام جامن وقال لريموند . لك سلطة على هولاء التعساء فارجع بهم الى سواء السبيل قبل ان يهلكوا عن اخرهم . قال ان دعواهم عادلة فنحن من اخلص رعايا جلالة الملك واكثرهم ولاء وامانة فليبح انا حرية مذهبنا نأتهِ طائعين خاضعين . وما اتمَّ ريموند قولهُ حتى علا صوت فردبث مناديًا . اطلقوا النار على الجاحد فختامَ هذه المداولة وبمَ يرضي اولاد باعل ابناء العليّ فارجع يا ريموند ودع عدل الله ان يقع . فاجاب ريموند . لن تصيبهُ رصاصة قبل ان تخرق صدري . ثم قال للمركيز يكفني بالله ياسيدي فعد سالمًا قبل ان ينفجر بركان غضبهم فلا اقدر ان احميك . قال انا عائد الى قومي عملاً بحكم الضرورة على انني لن انسى عمري انك يا ريموند مخلصي وان حياتي من يديك . قال بل ارجو منك ان تتناسى ذلك ما امكنك فان ما فعلتهُ معك افعلهُ مع كل فرد من الناس . قال هذا وانحنى امام المركيز بعظمة وجلال واقام في مكانهِ بين الصفين حتى رأى المركيز قد اختلط بالمعسكر فلوى عنان جوادهِ وعاد الى قومهِ على مهلٍ يلفت رأسهُ الجميل نحو الاعداء هازئًا بصوارمهم والقنا غير مكترث بالموت

ولما رأى الروساء ان ريموند اصبح في مأمن صاحوا بالقوم فصوبوا البنادق واطلقوها على جنود الملك دفعة واحدة وكانت الجنود قد اختبأت وراء الاشجار فلم يكن للبنادق تأثير الاَّ على الذين اطلقوها اذ انهم اصبحوا بعد الطلق بدون تأهب للدفاع . فلما رأى احد القواد المحنكين ما آلت اليهِ الحالة امر بباب العرصة فاغلق وبالرجال فوقعوا على بطونهم . وكان ثمَّ وقت التحذر فان الجنود اجابوهم باطلاق البنادق التي لم تأتِ بضرر يذكر لان البروتستانت كانوا قد عملوا بامر القائد الذي اتخذ على نفسهِ قيادة الثائرين ودعا بريموند لان يكون مساعدًا لهُ في ذلك وقال لهُ . انني اريد قبل ان اتولى امر

الدفاع ان اعرف شيئًا من نواياك وافكارك أفترى انّا نسلم ام نقاتل ما دمنا قادرين على القتال قال بل نقاتل حتى يفنينا السيف قال فليكن الله معنا فاننا سندافع مدافعة الابطال ومتى أُلجئنا الى الفرار نفرّ الى السرداب حيث نصادف لحودًا مجيدة ومدافن شريفة . قال هكذا فليكن . ثم أُخذت التحوطات وخرج البروتستانت لصد هجمات جنود الملك الذين زحفوا على القصر فاشتبك بينهم قتال عنيف وكان ريموند يجول على ظهر الجواد ويجود بضربات في وقعها الموت الاحمر حتى التقى بالكونت دالبون فالتحم بينهما القتال وتجاولا على ظهري فرسيهما وكانت الغلبة في الظاهر لريموند فانهُ اثخن الكونت وهدّ ركن قواه وكاد لولا القضاء ان ينجح لهُ ضربة قاضية ولكن الكونت جمع قواه وانصب على ريموند وضربهُ بالحسام ضربة وقعت على رأسهِ وكان عاريًا فسقط على الارض صريعًا .
فلما رأى البروتستانت ما حل بريموند اركنوا الى الفرار واخذوا يتسابقون الى السرداب

وكان القائد قد شعر من قومهِ بالضعف فنادى بالرجوع الى القصر والتحصن في السراديب فاندفع القوم يزاحم آخرهم اولهم حتى صاروا داخل الحصن الاَّ فتية ضحوا انفسهم لايقاف العدو عن التقدم قبل ان تقفل الابواب فراحوا شهداء الحمية والنخوة . واقام البروتستانت داخل القصر بانتظار الساعة التي يهاجم فيها جنود الملك باب الحصن وهم يعقدون على هذا الهجوم قصور آمالٍ نسفتها رياح الحيل العسكرية فان الكونت دالبون بدلاً من ان يهجم بجيشه على القصر فياخذ العصاة عنوةً أَمر بالعساكر فتوقفت عن الهجوم واقام في مكانهِ لاستنباط الحيلة . وكان على جراحه لا يزال شاهرًا سيفهُ فرحًا بما أُوتيه من النصرة على ريموند فاتكأَ عليهِ وفكر ساعة . وكان البروتستانت في خلال ذلك يخمنون ولا يهتدون فان ابطاء العساكر عن مهاجمتهم دلهم على انهم يدبرون حيلة ليأخذوهم بها ولكن كيف الوصول الى اكتشافها . هل كان في نية رجال الملك ان يبتلوهم بالجوع فيكرهوهم على التسليم ام كمنوا لهم حتى اذا حاولوا الخروج اسروهم وقادوهم مغلولين صاغرين . تلك كانت تخمينات البروتستانت بين سكونٍ مهيب وسكوت مرعب ولقد كانوا في ظنهم عن الحقيقة بمراحل لان ما كان الكونت دالبون يعده لهم لعذاب تشيب من مجرد الفكر بهِ لم الاطفال فانهُ بعد ان فكر في تدبير الحيلة طرق مخيلتهُ فكر جهنمي يرتد عنهُ اقسى قلب فهبَّ من مكانهِ وابتدر المركيز بالكلام فقال . أترضى بان تضحي في خدمة الملك جزءًا من ثروتك . قال بل هي وحياتي في سبيل رضاهُ . قال ان كان

ذلك فاننا نقمع هذه الحرب ونقطع دابر الاشقياء فان بروتستانت هذه المقاطعة مجتمعون داخل هذا القصر فهيا نضرم في جوانبهِ النار فنشويهم وندعهم تحت الردم . قال انني اجود بقصري ولكن ما تراهُ يا سيدي فظيع لا يرضى بهِ ذو شعور انساني . قال نعم انهُ لفظيع ولكن الغاية تبرر الواسطة فاننا نحقن بهلاك شرذمة العصاة دماء ابطال الملك وجنوده الامناء ونعيد الامن والسكينة الى المقاطعة ويكون عملنا عبرة لسواهم من القوم الثائرين . فاجاب المركيز وفرائصه ترتعد . انني لا اجد من نفسي قوة لاصدار امري باحراق من كانوا لي اخوة واخلاء . قال ان أمر ذلك لا يعنيك فانا ادبر المكيدة ولكنني اسألك فقط الاذن بان اتصرف بملكك بما أراهُ موافقاً لخدمة الملك . قال ان مالي وملكي وحياتي وقف على رضى مولانا فاذا تكلمت باسمهِ فمر تطع . ثم وضع رأسهُ بين يديه وقال أواه يا سيدي انني لا ادري ان كان ما تفعلهُ يرضي خاطر الملك ولكنني على يقين من ان اله الرحمة لا يرضى بسفك الدماء .

اما الكونت دالبون فكان كمن لا يسمع لاشتغالهِ باصدار الاوامر لتنفيذ العزم الذي نواهُ فتركهُ المركيز وسار نحو ساحة القتال ليبحث عن جسد ريموند فان حبهُ لهُ ثار بعد الكمون فلم يعد يرى الا سابق وداده مع ابيهِ وحب ابنتهِ لهُ فأحب ان يفي هذا الشجاع آخر فرض عليهِ فيحفظ بقاياه الكريمة اذا كان لم يقدر ان يدفع عنهُ الموت فنادى بخدمهِ واخذ يبحث معهم عن جسد ريموند ولكن ضاع تفتيشهم فانهم لم يقفوا لهُ على اثر فتأوه وحزن فقال احد الخدم .

— ان البروتستانت لم يدخلوا القصر عن آخرهم بل فرَّ منهم كثيرون ولقد رأينا بعضهم يعينون الجرحاء على المسير فعسى ان يكونوا قد خلصوا الكونت مع من خلصوهم وانا رأيت البارون دي هيس متجهاً نحو قصرهِ ورجالهُ يسندون رجلاً على آخر رمق فلربما كان هذا هو قال .

— لا واأسفاه فان سيف خصمهِ قد شقَّ صدره ورأيتهُ واكبداه قد خرَّ صريعاً وحينئذٍ علا الصراخ من كل صوب فالتفتوا واذا بسحابة ضباب دخان من داخل القصر فارتعدت فرائص الكونت وجمد الدم في عروقهِ ثم صاح .

— الوداع يا قصر اسلافي . الوداع ايتها الفريسة التي قاسمتها الضلال زمناً وعفوك ربِّ ان ذلك بالرغم عن ارادتي

(البقية تأتي)